# ٦- درب قاحل

أبي، أبي يحملني ويركض بي وسط الورداتِ.

أبي، أبي يغني لي ويسألني من هي فتاتي.

أبي، أبي رحل الأن ولم يعد منه سوى رفاتِ.

أبي، أبي رحل وهو يكرر: أحبك يا فتاتي.

أغنية جميلة هي لكنها حزينة، فكرت ليليس وهي تنظر لتلك الفتاة الصغيرة التي تغنيها، يبدو أن الفتاة أصغر من أن تدرك معنى تلك الأغنية؛ فقد كانت تقفز في دوائر بين صديقاتها ضاحكة كما لو أنها أغنية عن العيد، على الرغم من ذلك، لم تشعر ليليس فعليا بالحزن لسماع الأغنية؛ فكيف تحزن لفقدان ما لم تملك هي، لم تعرف ما الأب، سمعت عنه فحسب، كل تلك الأغاني عن الآباء والإخوة والأسرة لا تفهمها حقا، فقط ما يدور منها حول الأمهات وعطفهن وحبهن الجمِّ لأطفالهن، والدتها كانت الشخص الوحيد الذي أحبته حقا في حياتها، أو بمعنى أصح، الشخص الوحيد الذي أحبها في حياتها، فكرت في ذلك ووجدت نفسها لا شعوريا تضع الكتاب الذي أمامها جانبا، ثم تخرج مرآة والدتها من حقيبتها وتقلبها بين أناملها مبتسمة بحزن، ثم تعيدها مرة أخرى للحقيبة، وتعاود الإمساك بالكتاب، ذكرها الكتاب بالمعلم ران، وشعرت أنه هو أيضا مهم للغاية بالنسبة لها بالطبع ليس كوالدتها، لكنها تحبه حقا من كل قلبها؛ فقد انتشلها من حياتها السابقة، كما أنه لطيف دوما، في بعض الأحيان كانت تشعر أنه بمثابة الأب

الروحي لها، لكن ترى هل تعني له مقدار ذرة مما يعني هو لها؟ فكرت لوهلة لا يهم حقا، ألا يكفي أنها جزء من حياته؟! حتى لو كانت جزءًا ضئيلًا للغاية، ولكن ذلك كافٍ للغاية بالنسبة لها، فربما هي حتى لا تستحق ذلك، ودت ليليس حقا أن تسعده بأيَّة طريقة، تمنت لو استطاعت جلب مقر الحالمين إليه؛ فهي تشعر أن شغفه حيال ذلك الأمر يزداد كل يوم عن الآخر، تمنت على أقل تقدير جعله يستطيع تأجير غرف أفضل خلال الرحلة، حيث إنها سمعته يتذمر من قبل حيال الغرف التي تكفي أمواله لتأجيرها. سمعت ليليس صوت شجار على وشك الحدوث، لكن الحراس سريعا ما أخمدوه قبل أن يبدأ، لا تدرِ لماذا الناس في المملكة الغربية سريعي الغضب والشجار بهذا الشكل، تكاد تقسم أن لولا إتمام الحراس لمهمتهم بشكل جيد في الحرص على عدم حدوث مشاجرات، لانقلبت المملكة الغربية لساحة قتال بلا توقف حتى يموت كل من بها، على الرغم من كل هذا إلا أن المملكة الغربية تعتبر علميا من أكثر بقاع الأرض خصوبة وحياة، أمر غريب أن سكانها بهذا الشكل المناقض تماما لها، ابعدت ليليس نظرها عن الكتاب الذي تحمله وأخذت تتأمل جمال عاصمة (ليس الكبرى)، لم يعكر صفو هذا الجمال سوى الأعلام السوداء التي وجدتها منتشرة في المدينة عند وصولهم؛ للتعبير عن الحزن لموت الملك، لكن ذلك مازال غير كافٍ لإخفاء جمال المدينة، فقد كانت من أجمل المدن التي رأتها ليليس بأزهارها الحمراء المنتشرة حتى في أضيق أركانها، لمحت هنا كذلك شيئا لم ترَه في هذه البلاد وعهدته في شبه جزيرة لونا فحسب، وهو وجود بساتين بأكملها تتكون من الزهور الزرقاء فحسب،

كانت عاصمة (ليس الكبرى) ذات طرق واسعة، وبيوت تتسم بالبساطة، وأغلبها متشابه ولكن تختلف في أحجامها، لم يتسنَّ لها سوى رؤية جزء ضئيل للغاية من المدينة، فهي كبيرة حقا، إذا كانت (ليس الكبرى) تشغل حوالي منتصف المملكة الشرقية، وتلك هي عاصمتها فحسب، فما إذن حجم (ليس الكبرى) بأكملها؟ يحكمها أبناء أخ الملك الراحل: الأمير جوزيف وأخيه الأصغر الأمير "بودير"، سوى أن ما اكتشفته عند وصولها للمدينة هو أن الأمير جوزيف هو حقا من يحكم ويهتم بما يخص شعب (ليس الكبرى)، وما يخص السياسات، بينما الأمير "بودير" هو المسئول عن الجيش هنا، حيث إن (ليس الكبرى) لها جيشها الخاص، لكن يبدو أن الأخين، أو بمعنى أصح الأمير جوزيف لديه اهتمامات مختلفة عن أغلب الموجودين بهذه الأرض، فليس الكبرى مشهورة بأن بها أكبر مستشفى لرعاية المصابين بالمرض الأزرق، كذلك سمعت أن ذاك الأمير يستعين بحكماء وعلماء من مختلف الأماكن لإيجاد علاج للمرض الأزرق، وبالفعل استطاع هؤلاء العلماء الوصول لبعض اللقاحات التي تؤخر الأعراض، أو تداوي الآلام قليلا، لكن علاجا فعليًّا للمرض، لم يستطيعوا التوصل لذلك، وهذا بعد ما يقارب عشرة أعوام من البحث والتجارب المستمرة، لا تذكر ليليس أن ما قرأته في التاريخ يبدي أن باستثناء القليلين لم يهتم أحد حقا لعلاج ذلك المرض؛ فقد تيقنوا أنه نتج بسبب مخالفة قانون المرايا عند ظهورها للمرة الأولى، فهو غير قابل للعلاج، حيث إن بعد ظهور المرايا للمرة الأولى رفض الشعبين الانصياع لأوامرها والتخلي عن أطفالهم، وتسبب ذلك في انتشار المرض الأزرق

دون أن ينبع من سبب مادي معروف، ظهر فحسب ومنذ ذلك الحين، وهو في منظور الشعبين مشابه للعنة المرايا، شيء غير قابل للزوال، على الرغم من احترام ليليس لإصرار ذلك الأمير إلا أنها أخذت تتخيل ما قد يتسبب به وجود عدد كبير من الموتى في مكان واحد، فذلك قد يتسبب بوباء آخر، يبدو أن الأمير اتخذ احتياطات ضد ذلك، بوضع المقابر بعيدا وكذلك المستشفى، وربما حتى حرق الجثث أحيانا إن ازدادت بصورة غير عادية عن المعدل الطبيعي وغيرها من الأمور، لكن يبدو حقا أنه الوحيد الذى يكترث بالمرض أو بعلاجه أو بعدم تفشي وباء آخر بسبب وفياته، فماذا قد يحدث إن لم تعد زمام الأمور بيد ذلك الأمير في هذا المكان؟! غرقت ليليس في أفكارها كالعادة ونسيت الموجودات من حولها حتى اخترق أذنها صوت لطيف مبحوح بعض الشيء:

"إذن ما رأيك؟"

نظرت باتجاه الصوت لتجد فتى في طولها نفسه وتبدو عليه النحافة، ذو شعر قرمزي متوسط الطول ومبعثر للغاية، وعيون باللون نفسه ووجه وسيم، يرتدي ملابس مرقعة بعض الشيء ويبتسم لها ابتسامة واسعة تُظهر أن أحد أسنانه الأمامية مكسورة، كان يجلس بجانبها الآن، ويبدو أنه ينتظر إجابة ما، حيال ماذا؟ لا تدري، حركت ليليس رأسها بغير فهم وتساءلت عمَّ يريده ذاك الفتى، أَغَرَضُه مشابه لغرض الفتى ثعبان البحر وسيظل يتغزل في جمالها كي يحاول الوصول لهدف قذر؟

"سيدتي، إنها صفقة مربحة للغاية، لم أعرضها على أي شخص من قبل ولكنك سعيدة الحظ"

زاد عدم فهم ليليس وأردفت ببلاهة:

"صفقة؟!"

نظر الفتى حوله سريعا كما لو أنه يخشى أن شخصا ما يراقبه، ثم خلع حذائه في لمح البصر ليخرج منه شيئا، اشتمت ليليس رائحة منعت نفسها بالكاد من التقيؤ من فرط بشاعتها، أمسك الفتى بشيء أخرجه من حذائه، ارتدى حذائه مجددا ثم نظر لها مردفا:

"معذرة على الرائحة يا سيدتي، فأنا لا أغسل قدمي سوى مرة في العام"

أرادات ليليس المعلم أن يحضر حقا في هذه اللحظة لينتشلها من هذا الموقف، فبدون قدومه لا تستطيع المغادرة؛ فقد أمرها أن تلزم تلك البقعة ريثما يقوم ببعض الأشياء ويعود كي يستكملا رحلتهما بنهاية اليوم، وها هي تنتظره منذ بعض الوقت برفقة حارسين من الحراس الذين أرسلتهم الأميرة دورسيرا برفقتها، لكن الحارسين ملا من الانتظار ودخلا لحانة مجاورة لحين عودة المعلم التي لم تحن حتى الآن، لم تعترض ليليس على أي من هذا حتى بداخل ذهنها، علمت أن تأخر المعلم بالتأكيد له أسبابه المقنعة، وليس لها أي حق بسؤاله حتى عن تلك الأسباب؛ لكنها أرادت أن يحضر الآن ليتركها ذلك الفتى لشأنها فحسب. رأت الفتى ينظر حوله سريعا مجددا ثم كشف عما يوجد بقبضته، كانت

قلادة ذهبية بهية الهيئة، تزينها جوهرة خضراء اللون، أعطاها لليليس لتتفحصها، كانت جميلة بلا شك.

"بعشرين عملة فقط، لن تجدي أبدا قلادة كهذه بهذا السعر، وانظري كذلك إنها تليق بلون عيناك، لا نرى ألوان عيون كهذه هنا، الأميرة جودي هي فحسب من تمتلك عيون مختلفة عنا، أأنت من شبه الجزيرة مثلها؟"

تساءل الفتى.

"أجل، لكن أجدادي كانوا ينتمون لهذه القارة"

"حقا؟ أنا كذلك، قيل لي أن أحد أجدادي كان من شبه الجزيرة"

أردف بها الفتى مبتسما، بدا بشوشًا لكن ليليس لم ترد إطالة الحديث:

"لا يمكنني شراءها؛ فأنا لا أملك ذلك المبلغ"

أردفت ليليس شاعرة ببعض الحزن، فقد أعجبتها القلادة حقا، كانت ستعجب المعلم بلا شك لكنها مع الأسف لا تستطيع تحمل سعرها:

"حسنا، كم يمكنك الدفع؟"

نظرت ليليس للأموال الموجودة في حقيبتها 'إحدى عشرة عملة' منها خمسة فقط ملك لها، أردفت بخيبة أمل:

"خمس عملات"

"هذا أقل بكثير من سعرها، أتعلمين إذا استطعت دفع ثلاثة عشر فالقلادة ملك لك"

فكرت ليليس بعض الشيء، تلك أموال المعلم فهل لها الحق حتى في التفكير في استعمالها؟!

"أتعلمين إذا بعت تلك لأي من محلات الجواهر، فقد يصل سعرها لثلاثون عملة، كنت لأفعل ذلك لكني لا أملك الوقت"

فكرت ليليس إذا اشترتها الآن، ثم قامت ببيعها سيكون الفائض كبيرا، وهذا سُيمكن المعلم من تأجير غرف أفضل في أثناء الرحلة، وهذا سيسعده بالتأكيد سيسعده، تنهدت ثم أخرجت الأموال من حقيبتها:

"هذا كل ما أملك"

ضيق الفتى فمه ثم أردف:

"حسنا، لا بأس، صفقة مقبولة"

أعطاها الفتى القلادة وأخذ الأموال وهو يمد يده لمصافحتها:

"سررت بالتعامل معك، أدعى آياز"

"أنا ليليس"

صافحته ليليس مبتسمة، بينما كان الفتى على وشك الانصراف سمعت ليليس ذلك الصوت المنادي باسمها، نظرت لتجده المعلم يرافقه الحارسان الآخران من حراس الأميرة دورسيرا غير الموجودين في الحانة، حيث إن الأميرة بعثت برفقتهم أربعة حراس، كان يسير إلى جانبهم حارس آخر يبدو أنه من حراس المدينة، أشارت ليليس للمعلم بسعادة، لكنها لمحت نظرة غريبة من حارس المدينة باتجاهها، وسمعت صوت الفتى آياز بجانبها يردف بتوتر:

"اللعنة"

هرع الفتى من جانبها مسقطا حقيبتها دون عمد.

"أنت يا فتي توقف مكانك حالا"

سمعت ليليس حارس المدينة يصرخ بقوة، حينها فقط وجدت الفتى يركض بأسرع ما لديه مبتعدا، ركض الحارس سريعا خلف الفتى وقبل أن تدري كان كلاهما قد اختفيا بعيدا، شعرت ليليس بالحيرة مجددا، فماذا قد يكون فعله فتى بتلك الحالة ليتم مطاردته بتلك الحدة؟!

"ليليس، هل أنت بخير؟"

تساءل المعلم وهو يقف بجوارها، أومأت ليليس له ثم همت برفع الحقيبة لتجد كل محتوياتها قد فُرغت أرضا، قامت ليليس بتجميعها سريعا، لكنها توقفت فجأة شاعرة بقلبها يتوقف، وبأطرافها تتجمد وهي تنظر لتلك الأجزاء الصغيرة المكسورة منتظمة إلى جانب بعضها بعضًا لتريها وجهها عدة مرات، وجهها وهي تنظر لمرآة والدتها المهشمة.

.....

أجمل ما بتلك المدينة ضحكاتها سواء ليلا أو نهارا، والسعادة التي تبدو محيطة بها بطريقة غريبة حتى مع وجود هالة المرض الأزرق، سارت ليليس ليلا وسط كل تلك الضحكات والابتسامات، وهي تشعر أن كل ذلك ما هو إلا لوحة مرسومة تنظر لها نظرة عابرة ومع الأسف، لا تُشعرها بأي شيء، تلقي نظرة أو اثنتين في أثناء سيرها على هؤلاء الأطفال الذين يقفزون بمرح، أو هذين

العاشقين اللذين يهيمان ببعضهما بعضا حبا، ثم تعيد نظرها للأرض مجددا، أرادت الإسراع بإتمام ما خرجت من أجله دون إخبار أحد، لكن على الرغم من ذلك، أرادت نسيان كل شيء والسير دون وجهة فحسب، لم تدرِ لماذا شعرت بأن قلبها يعتصر حزنا لفقدان تلك المرآة، كانت تذكرها بوالدتها، لكن والدتها رحلت منذ زمن، ربما أوهمت نفسها فحسب أن جزءًا من والدتها مازال برفقتها لحوزتها تلك المرآة، لم تستحقها، لم تستحق إبقائها إن لم تستطع الحفاظ عليها، أخيرا، وصلت لذاك المتجر 'متجر الحُلي'، همت بالدخول لكنها نظرت للطرق حولها نظرة خاطفة ورأتها، رأت والدتها، بشعرها الأحمر المموج الطويل، وابتسامتها الحنونة، ترتدي فستانًا أرجوانيّ اللون بسيطًا للغاية، لكنه ساحر بأكمامه الطويلة والزركشة الموجودة في نهايته، كانت تلاعب طفلتها الصغيرة الملقبة بليليس، يبدو أن تلك الطفلة على وشك إتمام عامها السادس، بين كل الضحكات التي رأتها ليليس، لكنها لم تشعر بها، كانت تلك هي السعادة الوحيدة التي أدركتها، رأت الابنة ووالدتها يسيران باتجاهها ويبتسمان لها، ثم مرا من جانبها مكملتا طريقهما، استدارت ليليس ناظرة لهما تبتعدان، رأتهما بملامحهما الحقيقية وشعرهما الأسود وعيونهما الحمراء، رأت أمًّا وطفلتها تسيران سعيدتين وليس مرآة لذكريتها.

تنهدت ليليس واستدارت عائدة لمدخل المتجر، جلس هناك رجل يبدو في أعوامه الثمانين ذا شعر ولحية بيضاء، بعيون حمراء وبشرة مجعدة تحتلها بعض البثور البنية بفعل كبر السن، كان معتدل الطول، لكن ظهره أصابه بعض الانحناء، بدين بعض الشيء يرتدي ملابس منمقة، رأت كذلك بالمتجر فتى في

العشرين يكتب شيئا ما على أوراق أمامه، ملامحه تشبه ملامح الرجل الكبير كثيرا، استشفت ليليس أن ذلك الفتى قد يكون ابن أو حفيد الرجل الكبير.

"كيف يمكنني خدمتك؟"

تساءل الشاب العشريني ناظرا لليليس.

"لا بأس، أكمل أنت الحسابات بينما سأقوم أنا بتلبية طلبات السيدة الصغيرة"

أردف الرجل العجوز للفتى العشرينى الذي ما لبث أن سمع ذلك حتى عاد لاستكمال أعماله.

"تقدمي يا بنيتي"

تقدمت ليليس ببطء تجاه الرجل، امتلأ المتجر بحاويات كبيرة الحجم للحلي المختلفة، منها الذهبي ومنها الفضي وبعضها نحاسي، منها ما به جواهر حمراء، صفراء، أرجوانية، ومنها الممتلئ بالنقوش المختلفة، منها ما يستخدم لتزيين الرأس، ومنها ما يستخدم لتزيين الآذنان وغيرها،

توقفت ليليس ثم أخرجت القلادة الذهبية من حقيبتها واضعة إياها أمام الرجل:

"من فضلك، أود بيعها"

تفحصها الرجل قليلا ثم أردف:

"نحن لا نشتري تلك السلع يا بنيتي"

"ماذا؟! لماذا؟!"

"ألا ترين؟! إنها خردة مطلية بلون ذهبي ليس إلا.."

صُدمت ليليس:

"ماذا؟!"

"أجل يا بنيتي، سأنادي حفيدي أيضا ليتأكد ذلك، ولكني واثق بأن عيني لا تخوناننني"

شرع الرجل في نداء الفتى الذي اتضح أنه حفيده، لم تسمع ليليس اسم الفتى على الرغم من صوت الرجل الذي أخذ يكرر الاسم، لم تسمع كذلك الفتى حين أتى وأخذ يحاوره الرجل بشأن الحُلي، تراهم لكنها لا تسمع شيئا على الإطلاق، فقد غرقت في أفكارها المرتعبة، ما معنى أن الحُلي خردة؟! ما معنى أنهم لا يستطيعون شراءها؟! معناه أمر واحد فقط، وهو أنها لم تفقد الشيء المتبقي لها من والدتها فحسب، بل ربما فقدت للأبد الأمل في أن تظل بجوار المعلم مساعدة له ولا تعود لحياتها السابقة.

"كما أخبرك، إنها لا قيمة لها، زينة لبضعة أيام ثم تبلى ويذهب لونها"

ظلت ليليس صامتة فحسب.

"سيدتي؟"

"ألا يمكنني بيعها بأي سعر؟"

خرج صوتها أشبه بالهمس.

"أعتذر لكننا حقا لا نشتري تلك السلع"

جاوبها الفتى بجدية.

"هل هناك مكان آخر يمكن أن يشتريها؟"

"ربما الباعة الجائلين يا بنيتي، لكنك لن تعثري عليهم سوى في الصباح الباكر وسيشترونها بثمن بخس للغاية، ربما عملة أو اثنتين إن حالفك الحظ"

أردف العجوز، أجابته ليليس وهي تنظر أرضا بعيون خاوية وصوت هامس:

"حسنا، أشكركما للغاية"

ثم اتجهت لخارج المتجر عائدة لأدراجها مفكرة في كم فعل خاطئ ارتكبته حتى الآن، بينما شعرت بالدموع تتجمع في مقلتيها، تخطى الوقت المسموح بتواجد المسافرين فيه ليلا على سطح السفينة عند سفرهما، كونها كادت تتسبب للمعلم بمشكلات بسبب ما كان سيفعله الفتى الثعبان لها، التأخر على المعلم، إشعار المعلم بأنه ذو قدر قليل أمام الحراس لأنها مساعدته، إضاعة أحد الرداءين اللذين أهداها إياهما المعلم والتسبب في بلاء الآخر، فكرت بذلك وهي تنظر لأكمام ردائها الأرجواني، والآن، أضاعت الأموال التي تركها المعلم بحوزتها وخرجت دون إذنه، لماذا هي بذلك الغباء؟ إنها حقا تكره نفسها، ربما هي بالفعل تستحق حياة رديئة، ربما لم تستحق أن تكون مساعدة المعلم أبدا. لم تدرِ متى وصلت للمكان الذي استأجر المعلم فيه غرفًا لهم، لم تهتم في الواقع، صعدت السلم ببطء ووقفت أمام باب غرفة المعلم، تنهدت مستجمعه قواها ثم طرقت على الباب، لم يمر وقت طويل حتى فتح العالم ران الباب، كان حافي القدمين يرتدي رداءه المعتاد، لكنه بدى غير مهندم، يبدو أنه كان مستغرقًا في القراءة أو

الكتابة، لا تدري، نظر لها بغير فهم، كانت عينا ليليس موجهتان للأرض لم تجرؤ أن ترفعهما لوجهه، ثم قالت بالصوت الهامس نفسه:

"أعتذر أيها المعلم ران.."

*****

اختفت المساحات الخضراء، الأشخاص الضاحكون، الابتسامات المشعة، الأعلام السوداء الشجارات المستمرة، النهر، الأزهار الزرقاء، لم يعد هناك وجود لذاك اللون، حتى في السماء الزرقاء أعلاهم، حتى الصبية المخادعين ذوي الشعر القرمزي والصوت المبحوح اللطيف اختفوا، لم يعد هناك وجود سوى لذاك الدرب القاحل الذي ساروا فيه، تحملهم إحدى العربات التي تجرها الأحصنة، استأجرها المعلم حتى يصلوا لوجهتهم بصورة أقل تكلفة من خطة رحلة السفر الأساسية، قرر ذلك بعد مصارحة ليليس بما فعلته، في الواقع هو لم ينبس ببنت شفة لها منذ تلك المصارحة، قد علمت بقراره من أحد الحراس الذي أوضح لها أنهم سيعبرون الدرب القاحل، ومنه سيصلون لمدينة (لوستيا) التي تعتبر الأقرب لمقر الحالمين سابقا، عوضا عن خطتهم السابقة في السفر من عاصمة (ليس الكبرى) لقرية (سند) في أقصى الجنوب ثم منها لمقر الحالمين، كانت الرحلتان ستوصلانهم لوجهتهم بالسرعة نفسها تقريبا، لكن الدرب القاحل ثم مدينة لوستيا كان بلا شك أقل تكلفة، لكن أكثر خطورة بعض الشيء، نظرا للحكايات التي سُردت عن ذلك الطريق، أقل ما يقال عنه هو أنه اسم على مسمى؛ فهو ضبابي بالفعل حتى في وضح النهار، لا تدري ليليس كيف، كيف هذا ممكن

حتى؟! لكنه كذلك. قرأت أنه الطريق الذي عبره إخوة الظل بعد تدمر أعدادهم تماما وخسارتهم، بدأ ذلك بعد خسارتهم الأولى في غابة الظل، حيث أقام إخوة الظل هدنة مع الشعبين، وحدث ذلك بزواج ابنة كبير إخوة الظل الملقبة بأندريا من ملك وقائد الشعب الأحمر حينها الملقب بروخو، اتخذ الملك روخو حينها من الجزء الغربي من القارة أراضٍ له ولشعبه وجنوده، وكذلك لحلفائه الجدد إخوة الظل، بينما أعطى أراضي الجزء الشرقي لابن صديقه القائد أمار، القائد الذي قُتل في حرب الدمار والأشباح التي كان موقعها غابة الظل.

سارت الأمور على ما يرام لبضعة سنوات، حتى حاول شعب إخوة الظل بتوجيهٍ من أندريا إيقاع الضغينة بين الشعبين بمكائد لا تنتهي، وكانت تلك هي الشرارة التي أدت لحرب الشعبين ضد بعضهما بعضا لمئات السنين، وكذلك كانت هي بداية النهاية الحتمية لإخوة الظل وإبادتهم عن بكرة أبيهم، حيث إن الأمور سارت على ما يرام بالنسبة لإخوة الظل حتى اللحظة التي ماتت فيها أندريا التي كانت حينها جدة الملك ذي العيون الحمراء، بعد موتها استطاعت ملكة الشعب الأصفر حينها الملقبة بكوري بخداع الملك ذو العيون الحمراء وإغوائه، بل وقلب شعبه ضده وضد حلفائه من إخوة الظل، في النهاية تم اغتيال ذلك الملك من قبل شعبه، كما تم قتل أعداد كبيرة من حلفائه من إخوة الظل، وفي ذلك الحين لم تكن أعدادهم كبيرة، فقد أُباد كثير منهم بالفعل في حرب الدمار والأشباح، مما جعل أعدادهم محدودة، وصاروا فئة مستضعفة ومنبوذة ومهددة بالقتل دوما، لذلك هربوا لأقصى الجنوب بقيادة كبيرهم حينها (دوكتوس)

وأخيه (ديابلوس) سالكين هذا الدرب، يقال أنهم لعنوا هذا الطريق بكيفية ما، لمنع الشعب الأحمر من اللحاق بهم وقتل المتبقي منهم، بينما يقول بعضٌ أنهم أحرقوا الطريق من خلفهم كي يبعدوا الأعداء عن وجهتهم، آخرون يجزمون أنهم دفنوا أمواتهم على امتداد ذلك الطريق، مما أدى لموت الطريق ذاته وموت أيَّة حياة موجودة به، كلها أقاويل لم يتضح أبدا أيها الأصح، بافتراض أن إحداها صحيحة وليست جميعها ادعاءات وأكاذيب، لم ترَ ليليس نبتة واحدة على مدار سيرهم، امتلأت الأرض بالرماد، لا تعلم إذا كان ذلك بفعل حريق تم بالفعل في هذا الطريق، أم أن هذا الرماد ليس سوى أوراق الأشجار التي فقدت نضارتها وذبلت وصارت خشنة، ثم تحولت بفعل مئات الأعوام لرماد يغطي الأرض، الأشجار المتواجدة على طول الطريق جميعها سوداء ميتة، لكنها بطريقة ما متشابكة من أعلاها لتخفي وجود الشمس بقدر استطاعتها.

بدا الأمر بتلك البساطة، لكن ليليس تكاد تجزم أن شيئا ما خاطئًا في هذا المكان، لم يكن الطريق واسعا، لذا حاولت ليليس أن تبقي رأسها للسماء التي لم ترَ منها سوى نهايات الأشجار المتشابكة، قليل من السماء، وبعضا من الغربان، لم تحاول النظر لجانبي الطريق خاصة في الليل؛ فقد هُيئ لها أكثر من مرة أنها ترى خيالات سوداء لأشخاص يقفون على بُعد ويراقبونها، أحيانا تشعر كأنها تسمع أصوات أشخاص يهمسون وأطفال يبكون، ربما هي تهيؤات فحسب، لكنها تفزعها للغاية، لم تستطع أن تنام حينها بالطبع، ولكن كانت تغمض عينيها بشدة وتأمل أن يصلوا آمنين، في بعض الأحيان تسمع ضحكات الحراس ساخرين

منها، ولكن ذلك لم يزل الرعب بداخلها، حتى أنها حينما تشعر ليلا أنها حقا تريد أن تقضي حاجتها تتكوم حول نفسها منتظرة قدوم الصباح أولا، مؤقتا هي لا تعيش في ذلك الرعب، ولكن ذلك لن يطول؛ فقد قررت الشمس أنها ستغادر قريبا وتتركهم وحيدين برفقة خيالاتهم، الخطر الحقيقي لم يكمن في الخيالات بل في الذئاب التي تسكن تلال الجنوب القريبة من ذلك الطريق، ما سمعته من الحراس أن تلك الذئاب قضت على المسافرين عبر الدرب القاحل أكثر من مرة، لم يزدها ذلك الخبر سوى رعبا، خاصة لسماعها صوت عواء في بعض الليالي، حقا لم ترد أي شيء سوى الخلاص من ذلك الطريق، فكم من الليالي ستحميهم فيها النيران على جانبي الطريق من الذئاب، أو ربما من تلك الخيالات السوداء؟! تساءلت ليليس ولم تحرك عينيها، بل ظلت ناظرة للسماء ولبواقي الشمس، تريد التشبث بها ومنعها من الرحيل، أرادت التحدث للمعلم ولكنها علمت أنه لن يجيبها، بل ولن يوجه بصره إليها حتى؛ بسبب ما فعلته، وله كل الحق في ذلك خاصة أنها تشعر أنه صار مهووسا للغاية بحضارة الحالمين والوصول لأنقاض مقرهم، بل تشعر في بعض الأحيان أنه قد يفعل أي شيء للذهاب لذلك المكان ومعرفة كل ما يخص الحالمين، كان يجلس في مؤخرة العربة يقرأ كتابا ما، يجلس أمامه حارس، بينما تجلس هي بالقرب من المقدمة، وليس بمسافة بعيدة عنها يوجد حارس آخر جالس، يجر العربة حصان يركبه مالك العربة، لديه شارب خفيف ويرتدي ملابس متوسطة الحال، يسير بجانب العربة من الجهة التي تجلس بها ليليس الحارسان الآخران يمتطي كل منهما حصان.

"لم أرَ شخصًا أبله مثله! عن أي حالمين يتحدث؟! ويريد الذهاب لمقرهم؟ أيريد أن تصيبنا لعنة ما؟! هذه ليست سوى مضيعة للوقت والجهد؛ فإما سنعود من هناك خائبي الأيدي وإما ستصيبنا لعنة ما!"

سمعت ليليس أحد الحارسين اللذين يمتطيا حصانين يتفوه بذلك بصوت خافت، كان قصيرًا بعض الشيء لكنه قوي البنية.

"إنها الأوامر؛ لا نستطيع مخالفتها"

أجابه الآخر الذي بدا أكثر قوة من الآخر؛ حيث إن عضلاته كانت ظاهرة للغاية:

"أتدري ما الأفضل من ذلك كله؟ أن تلك الأوامر مخالفة لأوامر الأمير دومين أم عساي أن أقول الملك دومين، تعلم أن الملك توفي، أتظن أننا سنتلقى وسامًا عند عودتنا؟!"

أردف الحارس القصير بسخرية، ليجيبه الآخر:

"إننا تحت إمرة الأميرة دورسيرا بعد وفاة زوجها الذي كنا تحت إمرته من قبل"

"هذا كله غباء، إننا نعامل كالعبيد ونساق لأسوء الأماكن ومن أجل ماذا؟! عالم أحمق ومساعدته الغبية التي أكاد أجزم أن لها يد ما في تغيير مسار رحلتنا المشئومة هذه!"

حزنت ليليس لحديثه، لكنه محق تماما؛ فهي السبب في كل ذلك، أكمل الحارس كلامه:

"أقسم لك ستصيبنا لعنة ما، السحر، السحر يا رجل هو السبب في وجود المرايا، ومن أعظم من الحالمين في السحر؟ إخوة الظل هم من أوجدوا المرايا ومن من إخوة الظل لديه السحر لفعل ذلك؟!"

"الحالمين.."

"أجل، لا يهمني إن قيل إنهم كانوا خيرين أم لا، لقد اختفوا في الوقت نفسه هم وإخوة الظل، ألا يبدوا ذلك مريبًا؟ والآن نتوجه إليهم بأقدامنا، والأسوأ من ذلك من خلال الدرب القاحل! يا لجرأة هذا الأحمق المدعى ران، عليه اللعنة!"

"يحسب نفسه أحدهم" قالها القوي ضاحكا باستهزاء:

"حقا؟!"

"أجل، يحسب نفسه من نسلهم، الأحمق ظن لرؤيته بعض الأحلام وتحققها أنه صار أحدهم، يحسب أن دماء جد جده الذي وُلد بهذه الأرض تجعله هو المختار الذي سيسترجع قوى الحالمين"

قهقه القصير بشدة:

"كيف لك بمعرفة كل هذا؟"

"سمعته يتحدث مع أحد العلماء في عاصمة (ليس الكبرى)"

"إذن سيسترجع قوى الحالمين لأي غرض؟"

تساءل القصير وبدا أنه بدأ ينساق في موجة الاستهزاء.

"تعلم، كي يجد وسيلة لإحلال السلام، حل مشكلة المرايا، وإيجاد إجابة لحلمه المستمر، شيء ما عن نيران، أسود، أرواح، شخص يرتدي السواد، وفتاة بعينين مختلفة الألوان، تعلم لأن هناك أميرة هجينة الآن صار جميع الناس يحلم بالفتيات ذوي العيون مختلفة الألوان طوال الوقت."

ضحك القصير قائلا:

"أعتقد أن الشيء الوحيد الذي يحاول إيجاد إجابة له هو لماذا لا تقبل به أيَّة امرأة"

قهقه الحارسان بصوت عالٍ سمعه كل الموجودين.

لم يمر كثيرٌ من الوقت حتى حل الليل، وقاموا بالتخييم على أحد جانبي الطريق، الهدوء التام هو تماما ما شعرت به ليليس، وهي جالسة بالقرب من النار التي جلس بجوارها أيضا المعلم والحارسان اللذان كانا يركبان العربة من قبل، بينما الأخران وقفا بالقرب من حصانيهما وأخذا يتهامسان، مالك العربة وقف بالقرب من عربته يضبط شيئا بها، أرادت ليليس التحدث للمعلم والاعتذار له مجددا، لكنها شعرت أنه سيقوم بإحراجها ولن يقبل اعتذارها، تكومت حول نفسها مقربة ركبتيها من صدرها، ثم نظرت للأرض متنهدة، لم يفت كثيرٌ من الوقت حتى ابتعد عنهم أحد الحارسين متجها للخلاء ليقضي حاجته، سمعت ليليس صوت عواء الذئاب، شعرت بأن الصوت قريب مما أشعرها بالذعر الذي بدت آثاره جلية على وجهها، حاول الحارس الذى مازال بجوار النار طمأنتها، ثم طلب منها الذهاب لإخبار مالك العربة أن يقترب من النار ليكون في مأمن،

بينما ذهب الحارس نفسه للحارسين الآخرين الواق"فين" بالقرب من الحصانين، لا تدري ليليس لما كان على مالك العربة أو الحارسان الوقوف بعيدا عن اللهب، نظرت ليليس للعالم منتظرة منه الإذن فلم تجده ينظر لها من الأساس.

"اذهبِي يا فتاة!"

قال الحارس بصوت عالٍ بعض الشيء، فسارت ليليس شاعرة بالحرج، مشت بضعة خطوات، لكنها اشتمت رائحة غريبة في الهواء وشعرت بشيء علق بحذائها، ابعدت قدمها وانحنت قليلا لتمعن النظر فيما وجدته على الأرض، لم تسعفها الرؤية لابتعادها عن النار بعض الشيء، لكن أتلك زهرة؟! زهرة في هذا المكان؟! شعرت بالتعجب حقا رافعة الزهرة لبصرها أكثر، إنها بالفعل زهرة صفراء أو بنية ربما، لم تستطع الرؤية بوضوح، لكن لطخها شيء ما، شيء لزج بعض الشيء، قبل أن تستطع رؤيته جيدا، سمعت صوت الحارس يصيح:

"كلا، لا تفعلا ذلك!"

شعرت ليليس بالفزع لسماع ذلك الصياح، نظرت باتجاه الصوت، لكنها لم تر شيئا، لم تر سوى العالم جهة النار يذهب لمصدر الصوت، ويشير لها أن تكمل طريقها حتى مالك العربة، تلك هي أول مرة يتواصل معها بأيَّة طريقة منذ مصارحتها له بهدرها المال، أكملت طريقها وشعرت بخطواتها تتسارع وكذلك دقات قلبها، رأت مالك العربة يجلس مستندا لشجرة ما، لم تر عربته أو حصانه، أين ذهبا؟ ولماذا يجلس في الخلاء بذلك الشكل؟! هناك خطب ما، أخذت تناديه بصوت ليس بالصخب ولا بالمنخفض:

"سيدي، سيدي!"

بدأ شعور الهلع ينتابها مجددا، ولكنها أكملت طريقها مقتربة من الرجل بوجل:

"سيدي، أأنت نائم؟"

اقتربت بيدها المرتعشة منه ثم ربتت على كتفه:

"سيد.."

لم تكمل كلمتها حتى وجدت الرجل يسقط أرضا، كانت الإضاءة خافتة للغاية، لكن ذلك لم يمنعها من رؤية عينيه الجاحظتين وعنقه الممزق، لم تمتلك حتى الوقت لتفزع، لم تستوعب حتى الموقف بعد، فلم تقم سوى بالشهقة والاستدارة لتجد عند استدارتها ذلك الذئب الضخم يقف أمامها مباشرة ناظرا لها، شعرت أنها تجمدت بموضعها، لم تشعر بأطرافها بل لم تشعر بذاتها، فجأة تحول الجو وأصبح في غاية البرودة من حولها، ولم يكن هناك شيء دافئ سوى دموعها الصامتة المتساقطة من فرط الهول من عينيها المفتوحتين، بالكاد شعرت حتى بتلك الدموع، شعرت أنها ستفقد توازنها، وأنه لم يعد هناك حولها هواء تتنفسه، مهما ازدادت سرعة أنفاسها لم تبدُ كافية على الإطلاق.

"لا تتحركي واركضي بعيدا حين أخبرك"

سمعت صوتًا يهمس بذلك، لم تدرِ أهي تتخيل أم أن هذا حقيقي؟! شعرت ببعض الدوار وتشوش الرؤية من أمامها، زمجر الذئب، عاد الهلع لأطرافها، وكاد

جسدها ينتفض من فرط الرعشة، كشر الذئب عن أنيابه وهم بالهجوم عليها حين صرخ الصوت الذي سمعته من قبل:

"اركضي!"

لم تشعر بذاتها سوى وهي هائمة على وجهها تركض بهلع وتلهث بقوة، لا تدري لأين، لا تدري من كان هذا، أكان ملاكًا ما؟ ذئبًا آخر؟ أحد الحراس؟ لا تدري، سمعت صياح وصراخ أحدهم، زادها ذلك فزعا وأخذت تبكي بشكل هيستيري وتزيد من قوة ركضها، نظرت حولها فرأت خيالات سوداء لا تبدو من معالمها سوى أنها تبدو كالأشخاص، سمعت أصوات أشخاص تبكي، أشخاص تضحك، أغمضت عينيها وازدادت حدة هلعها وبكائها حتى صارت تصرخ كالمجنونة.

"أسموني ثعبان البحر أيتها الحقيرة لأنني أجد الفتيات أمثالك."

"هذا أقل بكثير من سعرها، أتعلمين إذا استطعت دفع ثلاثة عشر فالقلادة ملك لك"

"ألتفّ حولهن حينما لا يطعن وأسحب الحياة منهن، والآن حان دورك"

رنت كل تلك الجمل بحدة في رأس ليليس:

"الآن حان دورك"

"الآن حان دورك"

"إنها يتيمة بلا أصل، أتظنني سأترك أي شخص يدخل القصر؟!"

"مرحبا بك أيها العالم وبـ.. بمساعدتك"

"مهما حدث، مهما رأيتِ لا تفتحي فمك، لا تتحركي، ابقي مختبئة فحسب"

"حان دورك"

"الآن حان دورك"

شعرت ليليس بمن يمسكها ويكمم فمها.

"توقفي عن الصراخ ستجذبين الذئاب"

نظرت ليليس بخوف جهة الصوت، لتجده العالم ران يمسك شعلة ويزيح يده من على فمها، أخذت ليليس تتنفس سريعا، وبدا عليها عدم الاتزان.

"أيها العالم، لا أشعر أني بخير"

قالت ليليس بصوت أقرب للهمس.

" هذا طبيعي؛ فهناك رائحة غريبة بالجو، النار انطفأت، لم يعد هناك ما يبعد الذئاب، والحارسان انطلقا بحصانيهما عائدين لـ (ليس الكبرى)، أرادوا سرقة العربة والحصان المتبقي وتركنا للموت هنا فحسب، ولكنهما فرا عند رؤية الذئاب"

لم تستوعب ليليس أغلب ما قيل؛ فكل هذا كثير، أكثر من أن يتم استيعابه فور سماعه، أكمل العالم:

"هيا بنا، فالحارس ينتظرنا لنرحل من هنا"

أمسك بها المعلم ليساعدها على السير، رفعت ليليس يدها لتسمك بجبهتها فوجدت دماء على يدها لا تدري ما مصدرها.

"هل أنتِ مصابة؟"

"كلا"

شعرت بثقل رأسها وبأنها لا تدري بمَ تتفوه أو بمَ تفعل، تسير فحسب لحيث يوجهها المعلم، ابتسمت ببلاهة مردفة:

"لقد وجدت زهرة صفراء، جميلة حقا"

"عمَّ تتحدثين؟!"

"لماذا قد توجد زهرة صفراء بأرض جرداء كهذه؟!"

"أنتِ تهذين، لست مرتاحا لتلك الرائحة بالجو، يبدو أنها السبب في ذلك"

شعرت أن صوت المعلم صار أغلظ.

"يراودك حلم ما، احكه لي، من فضلك احكه لي أيها العالم ران"

"ها أنتِ"

نظرت ليليس لمصدر الصوت، فوجدت الحارس الذي كان يجلس بالقرب من النار من قبل وبجواره شخص ما:

"إني أراه، إنه بجوارك"

إنها لا تدري ما الذي تقوله حتى، خُيل لها فحسب أنها رأت شخصًا ما.

"ضعها فوق العربة، أسرع"

أردف المعلم بتوتر، حمل الحارس ليليس ووضعها في العربة

"أم أنه زوجي؟"

تساءلت ليليس بنبرة خجولة، نظر الحارس لران متعجبا وهو يسأله:

"ما بالها؟"

"شيء ما في رائحة الجو يؤدي للهذيان، بدأت أشعر ببعض الدوار، لنذهب من هنا فحسب"

نظرت ليليس باتجاه المعلم والحارس فوجدت الخيالات السوداء قد عادت مجددا، ولكن تلك المرة أحدها أخذ يقترب ويقترب، حتى رأته في صورة شخص حقيقي، ولكن الظلال أحاطت به، رأته يرفع خنجرًا ويهم أن يطعن به المعلم ران، انتابها الذعر مجددا وأرادت فعل أي شيء لمنعه، لم يكن بوسعها في ذلك الحين سوى رفع إصبعها والإشارة به نحوه بأسرع ما استطاعت، لمح الحارس إشارتها لينظر سريعا لجهة المعلم ثم يدفعه بسرعة جانبا ويبارز ذلك الشخص.

"امتطي الفرس"

صاح به الحارس، انصاع ران سريعا لأمره، رأت ليليس أشياء غريبة للغاية، أو ربما هي تهذي حقا، لا تدري، فقد رأت الحارس كما لو كان لا يرى الرجل الذي تحيطه الظلال على الرغم من أنه كان يقف أمام الحارس بلا حراك، وتكرر ذلك في كل مرة كاد فيها الحارس الظفر بذلك الشخص أو إصابته، لم يستغرق الأمر سوى قليلٍ من الوقت حتى أصاب ذلك الشخص الحارس في قدمه ليشل حركته، حين رأى العالم ذلك، حاول حث الحصان على التحرك، لكن بدا أن هناك مشكلة ما في العربة، يبدو أن الذئاب لم تكن السبب الوحيد لجعل الحارسين الهاربين يرحلان دون العربة.

"انزلي يا ليليس، انزلي حالا من العربة"

لم تفهم ليليس جيدا، ولكن صياح العالم أشعرها أن الأمر حقا جدي، نزلت من العربة بخطوات مبعثرة ناظرة جهة الحارس لتجد ذلك الشخص يطعنه في صدره.

"فكي اللجام حالا، إذا تركت الفرس فسيهرب!"

رمى لها ران سكينًا، أمسكتها ناظرة إليها بغير فهم.

"اقطعي اللجام فورا!"

صاح ران بقوة، فزعت ليليس من صياحه مما أدى لانصياعها وقطعها للجام سريعا، نظرت جهة الشخص الذي طعن الحارس، فوجدته يسير جهتها، نظرت للمعلم لتجد يده ممتدة لها وعلى وجهه نظرة هلع، لوهلة لم تدر من هو ومن الآخر، شعرت بالموجودات تلتف من حولها وبالآخر مازال يقترب، حتى يكاد يصير واقفا أمامها، تمعنت فيه، كانت عيونه زرقاء جميلة حقا، لكن لماذا يشهر خنجرا تجاهها؟ لماذا يفعل ذلك وعيونه بديعة الجمال بهذا الشكل؟! انتشلها من تساؤلاتها المتضاربة ألم في معصمها، لتجد الرجل أعلى الفرس يجذبها بقوة، لم تدر ماذا حدث، أهو قد حملها لتمطي الفرس أم هي فعلت ذلك بنفسها، وجدت نفسها صارت أعلى الفرس فحسب، بينما يزمجر من كان يشد معصمها منذ قليل، وتظهر عليه علامات الألم ثم انطلق بالفرس سريعا، نظرت ليليس للشخص الآخر من خلفهم فوجدته يختفي تماما في الظلال، ورأت الخيالات السوداء مرة أخيرة قبل أن تغلق عينيها ويصبح كل شيء مظلمًا.

*****